وثـــــائق

للمرحوم
عبد الحميد بن هدوقة

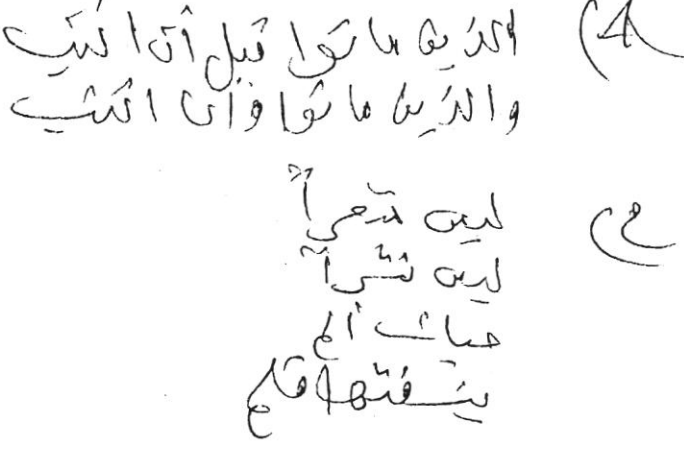

نحن شهداء الجريمة !
جريمة جاء بها البحر في يوم اسمه يوليو ... الماضي
جريمة عاشت بيننا ~~سلام~~ تتحدى الأيام
بعد أن حولت الأشياء على مدى الدهور إلى العدم
عاشت في نعيم
بعد أن ~~حول~~ صار البحر طوعا بنانية على طريق الأمة
وصارت الدنيا لا تساوي مفتاح بعوضة
عاشت الجريمة في هذا الضياء الخصب
وعمرت
وكان عمرها أصعب على حياة الآباء والأجداد
لعنة على ما قرن بذبيحة تاريخ دمها شعب السلف والاستقبال
لعنة على ما تذكران الأرض واسعة وفي بلاد وطن للأمة فيها الموضع قدم !
الشعوب تعرف ذلك
تعرف أنه لن يكون حياة في وطن ليس له .
تعرف أنه لن تكون حرية بلا وطن ،
تعرف أنه لن يكون مستقبل لوطن بلا وطن
تعرف أنه لا تحقق انسانية لإنسان بلا وطن !
الشعب الجزائري يعرف كل ذلك ،
تعلم من الحق المرهبة
والمطالبات الطويلة
تعلم ~~أن~~ ~~كيف~~ ~~تحمي~~ الحياة في ظل الجريمة -
جريمة ~~المتعلمة~~ و ~~المثلث~~ الموت والدمار

وجاء نوفمبر 54 ،
~~لم يأتي من فراغ~~
ولد ته المعاناة الطويلة والحرمان الطويل
ولد ه الجوع والعراء والبطش الرهيب
ولد ته مخايل الفلاحين ونوءين العمال
ولد ه حقد البائسين وأحلام العلماء و طموحات المحرومين .
ولد ته حرب كانت دائمة علينا لا لنا
ولد ه ماضي الجريمة وماضي الصمود -
جرى دمنا طوفانا شبابا سوا ~~الوطن~~ بالحرية قبل الإيمان بالأديان
أدركوا أن حرية الوطن هي حريتها
وأن وطنهم ليس أرض الدماء الواسعة ،
إنما هو الجزائر بحدودها الجغرافية بتاريخها الطويل المجيد زمن الصخور والحجارة
والنار التي آمنت بها الذي مات في كل واد وأثناء كل نكبة ، أو فتح مبين !

كان يوم 1 للجهاد معنى ونور
لم يكن مسوح رهبان وزواج متعة وحرق مدارس،
لم يكن قتل إخوان في الوطن والدين،
لم يكن من أجل حياة نائبة، أو شهرة كاذبة.
لم يكن جهاد مخدرين أو منبوذين أو عصابة للوطن والدين،
جهاد عظيم آلة الجريمة والاستعمار البغيض،
لم يعلم قطاع طرق ومسافرين،
بل المدارس تلك مثابة الفقراء واللاجئين
لم يحرق مدرسة، ولو للعدو، باسم الدين!
أولئك المجاهدون الأبرار هم أبناء الجزائر حقاً
هم آباؤنا وإخواننا حقاً في الوطن والدين
هم أبطال الحرية والدين
هم سلالة أبطالنا على مر العصور والدهور
هم سلالة الفاتحين،
وعلى أيديهم جاء لهذا الوطن الغالي فتحه المبين
فبناؤهم ~~بقتلوا~~ ~~الجزائر~~ ~~أعظم~~ ~~أم~~ اسمها السماء
بناؤهم رفعوا علم الجزائر عالياً في الأسد
بإيمانهم وتضحياتهم جعلوا وطنهم مولى للكائنين
ومناطق الحرية والكرامة في كل مكان.
هم المجاهدون،
وهم هم المجاهدون،
وهم هم أبناء نوفمبر،
صنعوا للوطن مجداً،
بنوا الحرية صرحاً
أعادوا للشعب قيمه الإنسانية
ولا تنهم ما تبقى في الوجود!

واليوم ...
نوفمبر 96 ...
530 مدرسة حرقها أتباع يقال: إنهم مجاهدون!
مجاهدون ضد من؟
باسم أي دين يقتل الأبرياء من نساء وشباب وأبناء!

يا اسم بابل ؟
عودا بابل المسكينة الحزينة مزقها الدين ... !
ما الحرية والدين ؟
ما البسطو والدين ؟
ما الخطف الرائس والدين ؟
ما الحرق المدارس والدين ؟
ما الحرق المحاصيل والمصانع والدين ؟
ما الحرق القطر والحافلات والدين ؟
ما القتل والدين ؟
ما الطلب الدين والدين ؟
ما الحرية والدين ؟ هذا
إله حقا توفيق الحزين !
الذي صرخ فيه قائلا : هو انشانا الوطن والدين
قائلا انتهك ، رصاصة غادرة من الوراء ،
لا نعرف من أين !
إله هو اسم توفيق يعود ، لا توفيق
توفيق الذي أحبه ، الذي فقدته ، الذي به كنا
أصبح حلما من أحلام الأمس ،
وذكريات الأمس
ومسرات الأمس

توفيق رحل ولن يعود .
لنبحث عن توفيق جديد
توفيق من بقايا بلوزيتس
والـ SAO !

ماذا أكتب ؟
عن الذين قتلوا ؟
عن المذبوحين ؟ وماذا أكتب ؟
أم عن الذين سيقتلون ،
برصاصة من خلف المزارع
بالأمس !
قد تكون رصاصة تنتظرني أنا ،
في صبيحة شتية
أو عشية
من أخ ، لا أعرفه ،

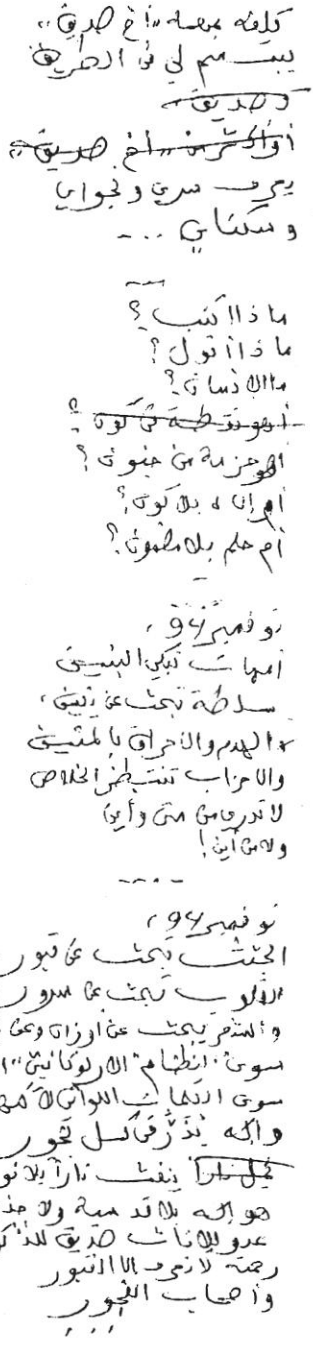

كلفه بمهمة «أخ صديق»،
يبتسم لي فأرى الصديق
الصديق
أو الكثير من «أخ صديق»
يحرق سنين وجوابي
وسنابي ...

ماذا أكتب؟
ماذا أقول؟
ماذا أسأل؟
أهو قطعة من كون؟
أهو جزيرة من جنون؟
أم إنه بلا كون؟
أم حلم بلا مضمون؟

نوفمبر 96،
أمهات تبكي البيتي
سلطة تبحث عن بيتي،
عن الهدم والحرق بالمنيتي
والأحزاب تنتظر الخلاص
لا تدري ممن وأين
ولماذا!

نوفمبر 96،
الحب يبحث عن قبور، فلا يجد
القلوب تبحث عن سرور، فلا تجد
والشعر يبحث عن أوزان وعن بحور، فلا يجد
سوى انظام الأرقام الدقيق
سوى انتهاب الأوقات لأمجاد الدهور
وأنه يذرف كل نحور
كل ناظر ينفث نارا بلا نور
هو أنه بلا قدسية ولا جذور
عدو للإناث صديق للذكور
رحمة لا تعرف إلا القبور
وأصحاب القبور

قال الراوي:
نوفمبر 54،
فسمّ لين نشيد الثورة
والوطن.
كما كان يهتف في كل أذن
كما كان يبشر بالحلم
كما تنشه حامله بحروف من دم
في سجن رهيب كالعدم!
أشجار وقاصل
وحديقة سلاسل.
وسمّ الثورة...
زيّفوه،
حرّفوه
وسموا به الخمائم
والكراسي والحمامات

قال الراوي:
نوفمبر 88، لين ثورة
كان بأسا ما سواد
وأحقاد،
لم يلد فجرا جديدا
لم يكن حلما مديدا
خلفته المصالح
والمطامح،
وأطفال فلوا صوت الحجارة
لتفتح مدارس وأكواخ التجارة، وتضاء حلم وعين الدعارة.
وحياة هي المرارة.

قال الراوي:
قالوا: إذا قتلنا فلنا الأرض غنيمة،
ولنا النساء حلال،
بين لهن الزلال
بنيت دولة بربرة
ذات بابين سدد
تسع فيها الصحراء مرارا
والبقية عبيد.

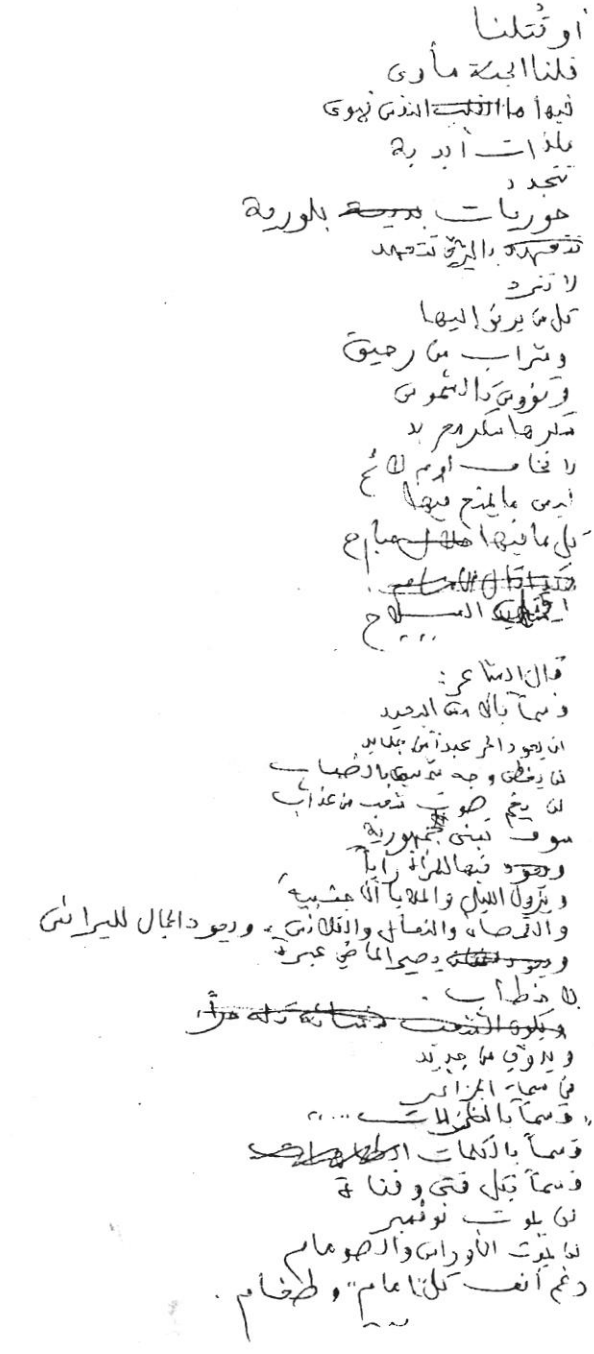

ريح الجنوب

بخط الكاتب الراحل

عبد الحميد بن هدوقة

-1-

بدأت الطريق تنحدر، واشتد ثقل التراب على ظهر العجوز رحمة. أحست أن ركبتيها الأعلى يسبق ركبتيها
الأسفل. تخيلت أنها تحمل جبلاً لا قفة من تراب! دبت رعشة في ركبتيها، ثم كلما خطت خطوة أخذ
تنتشر في أعضائها، عضواً عضواً، حتى عمت جميع أجزاء جسمها. وضاق نفسها فلم يعد يخرج
من [illegible] وإنما ينسل [illegible] وشعرت بحرارته في [illegible]
[illegible] احتراقه في صدرها. حركت لسانها وزمت شفتيها المنكمشتين، تود بلع قليل من الريق
لا طعم [illegible] ولكن لم يكن بفمها، كان يابساً.

كانت تقطع هذا الطريق الفاصل بين بيتها وبين المحجر الذي تأخذ منه التراب لصنع أوانيها مرة
[illegible] هذا ما يجول الآن بخاطرها وهي ترى نفسها في هذه الحالة. لم تجد لها الآن
شبابها، بل لم يكن في شبابها وإنما في حزنها وفقرها. ولم تكن في حاجة إلى قوة لحمل هذا التراب الذي تصنع
منه أوانيها الفخارية لما فكرت في الماضي، لأن حياتها كلها كانت متشابهة، أو هم أو بالأحرى لم تكن
لها حياة بالمرة. فهي في الستين من العمر ولكنها ما تزال بكراً عذراء!... هي في الواقع لا تشعر بوضوح أنها
بلغت سن الشيخوخة، كما لا تشعر أيضاً أن ما عاشت من أيام كان مديداً، لكنها تشعر فقط بالشعور
[illegible] تحلم بصنعها لم تصنعها بعد. وإذن فالزمان الذي عاشته
أن الأواني الحقيقية التي ما فتئت تحلم بصنعها الأكبر: صنع أروع ما تراه عين من أوان [illegible]
وزخرفته لا قيمة له في نظرها إلا في اليوم الذي تحقق حلمها الأكبر
[illegible] مستقبلها وآمالها
حياتها لا تعد بالأيام ولكن بالأواني. فهي ماضيها وهي ذكرياتها، وهي أيضاً مستقبلها وآمالها
في المحجر الذي تقطع منه التراب [illegible] الأيام مغارة أو كهفاً. وأوانيها بلغت ما لا يحصى من القرى
ما جاور، ولكن الأواني الحقيقية ما تزال لم تصنعها...

هي تتصورها في نفسها تصوراً دقيقاً مفصلاً، سواء أشكالها أو الرسوم التي تزينها عليها. لكنها
في كل مرة تحاول صنعها تعترضها صعوبات. مرة تخلط في مقدار التراب الذي تضيفه إلى حطام الأواني
القديمة وأخرى في مقدار هذا الهشيم. وأحياناً عند ما تهيئ [illegible] بدقة وتعجن الطين وتأخذ في عجن الطين
[illegible] وهناك أوقات تحضر التراب تحضيراً جيداً، وتعد هشيم الأواني
[illegible] وجود عنصر أجنبي من الأرض [illegible] وجزئين من التراب، وتخلطهما
[illegible] وتأخذ من كليهما ما ينبغي: جزء من هشيم الأواني [illegible] الزعفران! ثم تعجنه مثل ما
[illegible] ضيق المنافذ بهذا الخليط دقيقاً رقيق الذرات [illegible] ثم تترك العجين
[illegible] وقتاً قد يطلع يمتد من إشراق الصباح الأول إلى دكنة الغروب [illegible] الأخير، ثم تترك العجين
[illegible] بعد صلاة الفجر وشرب القهوة. لحينها الذي يكون قد تعد
[illegible] ليلة كاملة فإذا جاء صباح الغد [illegible] بعد صلاة الفجر وشرب القهوة
[illegible] صالحاً لصنع الأواني، وأخذت تبني [illegible] بالاستغراق في صنعها
[illegible] وتشذب، وصار [illegible] ... لكنها عند ما تنتهي
[illegible] الليلة السابقة. فتتضح لها أن الأشكال التي تراها في الخارج قائمة بالأواني
[illegible] تتضح لها، بعد أمل لحمته جهود ونصب وإرهاق، تتضح من زوايا نفسها. فهي إذن مضطرة
[illegible] بزاوية مكينة من [illegible] الأشكال الغائمة الذات [illegible] الأواني الأشكال
[illegible] مع الارتياح [illegible] ومتى ما طابقت الأشكال [illegible] وصنع غيرها
[illegible] كسرها) ولتركها جانباً، أوان أن صباح لم تكن [illegible]
[illegible] تكتشف أن الرسوم التي رسمتها على الأواني غير ملائمة
[illegible] في نفسها بأنها [illegible] التي حرمها من تحقيق أملها [illegible] الفخارية
[illegible] من الطوارئ والمفاجآت [illegible] ما [illegible] قد تعينها
[illegible] ما تظل الأجيال لا قيمة له إلا بمقدار ما [illegible]
عمرها إذن، هذا الذي يمتد وراءها [illegible] لا يعد ذا أهمية بالنسبة إليها، بعملها الحقيقي
في تحقيق أملها يوماً.

وعملها، إذن، هذا الذي يملأ قريتها والقرى المجاورة لا يعد [illegible] تصنع منه الأواني.
[illegible] التراب [illegible] الحاجة إليها: تقطع هذا الطريق [illegible]
ما يزال بكرة حية في نفسها [illegible] التي [illegible] وهي في أمس الحاجة [illegible] لقوة إن [illegible]
[illegible] إذن، على قوتها [illegible] إنما هو استنفاد [illegible] وخلق [illegible]
[illegible] ليس استعماله [illegible] أو [illegible]
والتواصل بين [illegible] والدار [illegible] لم تجد تستطيع أن تقود
[illegible] فباله أقل من الإرادة.
ولكن انحدار الطريق زاد ثقل قفة التراب وزناً، وركبتيها ارتعاشاً [illegible] الذي يشد القفة إلى ظهرها.
[illegible] من الطاقة التي أمدتها إياها [illegible] لا [illegible] للسقوط. هي أيضاً
[illegible] بالمصارة [illegible] وتشكل نظرة مرتعشة [illegible]
ما تجمع في جبينها من عرق [illegible] وماتت الآن [illegible] نطرة العرق، ومنه
[illegible] للسقوط [illegible] نطرة العرق [illegible]
بالأواني التي تعتبرها العمر الحقيقي لحياتها. والمعنى الوحيد لحملها لم تصنعها.

نظرة الأم تجمعت ، جيبتها وانفرت على أنيابها وتشكلت نظرة لا معنى لها توشك أن تسقط على الأرض بلا معنى هي نفسها ، نهايتها بين الحجر والدار وهذا الطريق الذي توشك أن تسقط بنظرة منه بلا معنى كذلك . لم يكن أن يكون لوجودها معنى ، نظرها لو صنعت الأواني ، معنى بالنسبة إليها هي . كانت يمكن أن تودع هذه الجماة بما يليها من طريق وأواني راضية مرضية ، سعيدة بما خلفت . أما أن تموت قبل ، بذلك هو عين الشقاء ، ونهاية العبث قبلها بذلة جهد ، وعاشت من أيام .

طبعاً ، صنعت كثيراً من الأواني الثمينة الجيدة ، ويمكن لغيرها أن يضع على منوالها ، وقد ينتهي به الأمر إلى ما وصلت به هي ولم تحققه . ولكنها لا تشي كثيراً بأن يحقق الغير أحلامها . ثم إن تحقيق الغير لما تمنت أن تحققه بإمكانه أن يجرد عليها من السلب بلا يجرده من الحلم ، وأن أعطى حياتها للسنوات الطويلة التي عاشتها فيما بعد لا تزعم منها العبث .

~~طويلة هذه الطريق التي تمتد بين الجبر والدار تطول من ماضيها الذي امتد وراءه من حوف من ترى سليمة فتذهلها لو مدت بها المكان ؟ القرية فاتحة تحت أقدامنا أرسلتها ثمين جويلية~~

من ترى سيدعوها لو مدت يدها هذا المكان ؟ القرية خاوية ~~من~~ على عروشها ، بالسكان جلهم بيانات من القرية من هناك يعودون زرعهم ، وأغلبهم تموق باليوم حجة بالموق والحصاد ، أبرزها الحجة حتى من النساء ، اللائي يستطعن لو حضرن تقديم مساعدة للعجوز ~~بالبقية~~ ، اللائي يخرجن أما اللائي يرطبن بأغلالهن بين الجدران ، فمن أين لهن أن يعلمن ما يجري وراء بيوتهن ؟ إن قوسية الحجاب عند بعض سكان هذه القرية تفوق بكثير قوسية الدين نزعمه . بالرجل قد يطلق زوجه ثلاثاً ~~ولا يعاشرها~~ ولكن لا يعاشرها ، وقديماً الدين والمرسلين ومن أرسلهم ، بأنهم مناسبة مرح يعترضه ، دون أن يلوم نزعمه حتى اللوم ، وقد يرتكب الزلات الكبيرة البطيئة والمعاصي الكبيرة ، دون أن تنطلق فيه ألسنة النار بالسوء . أما أن تزم زوجه بذلك مالا يمكن فيه الله نظاء ، والإعذار والإنذار بهؤلاء المغفورات المكنونات ، أصدافهن لا يستطعن تقديم أي عون للعجوز حتى ولو أنها سنطة وقفت العجوز ... إن الطريق ما تزال طويلة أمامها ، التواء وانحناء ، تتعبان صرعاً الريح بدأت تتأكد الآن أنها لن تصل إلى بيتها هذا المرة . القرية نائمة ، مدعية الشحة جويلية ، لا حس ولا همس ما عدا صرير الحشرات .

ولكن يجب أن تفعل شيئاً . لن تستطيع أبداً ، هكذا واقفة ، أنها تحس ثقل التراب الذي تحمله ، تحمله بأكثر من ذراعيها جسمها . لو استطاعت أن تزيح من ظهرها هذه الأتربة لا يمكنها أن تستريح قليلاً وتستعيد بعض من قوتها أو تنتظر عون أن ترى أحداً ما يعينها ، تحملها إلى الدار ، لكنها لن تفعل ، ولن تستعيد قدرتها وثيقاً من ظهرها وأقل حركة تبعثرها توازنها .

لم تسقط نظرة الأم مازالت معلقة بأرض أنيابها ، ما يدعها هناك ؟ هي أيضاً واقفة ولكن لا تدري كيف يمكنها أن تبقى واقفة ؟ إلا أنها الآن اختلطت بنفسها ، هل هذه ما يراها ؟ القرية صارت نظرهم غيماً داكناً ، الطريق أخذ تنصر وأخضر وأحمر بما يليها هو تلك تلوكه مائدة الإنسان البشعي . حلت ذبابة على نظرة الأم وتريثها ثم نرحت أنيابها ، عضت ...

لم تحس ألم الطعنة ، تدحرجت قدحرجاً بالغ السرعة هي والتراب الذي قبله أيضاً ، لأن الجدار الطيني شديد . لم تحس أما لكنها رأت وهي تتدحرج إلى أسفل برئا ضخماً تخرج بانتظام أوانيها الفخارية حمراء ملتهبة منتصبة عند إلى السماء بسرعة تفوق التقدير .

...

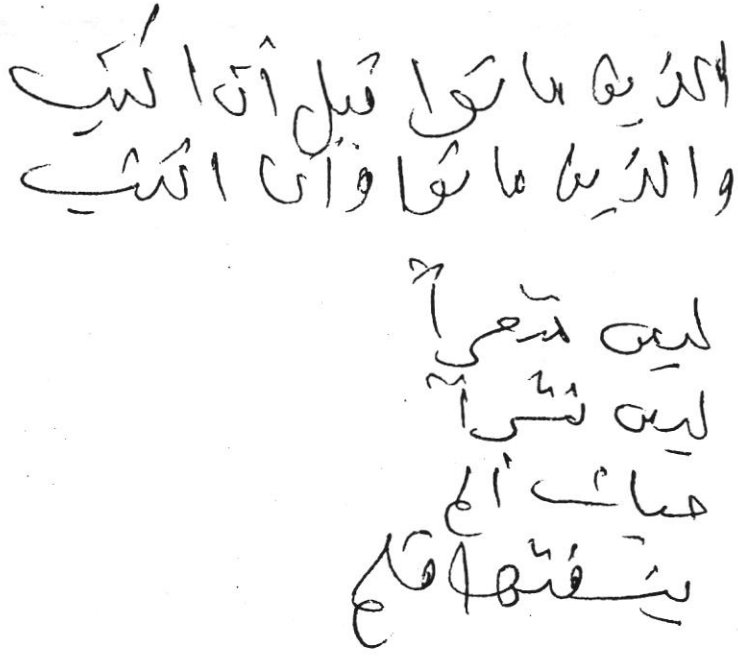
الذين ماتوا قبل أن اكتب
والذين ماتوا وأنا اكتب
ليس شعراً
ليس نثراً
حياتك ألم
يشفيها قلم